◆ مدرسة العباد (سيدي أبي مدين): نموذج للمدارس الإسلامية بالمغرب العربي

د. عبد العزيز لعرج

ملخص:

تعد مدرسة سيدي أبي مدين بالعباد من بين أهم المدارس المغربية في العصر الوسيط بل وتقوم نموذجا متميزا لتلك المدارس. وتهدف الدراسة إلى معرفة تاريخ المدرسة وتتبع عمارتها وتشخيص نظامها المعماري ومنظومتها الفنية الزخرفية بالتركيز على طبيعة مخططها وعناصره وخصائصه وعلاقته بالنظام التخطيطي للأربطة الدفاعية المبكرة كرباط سوسة والمنستير وذلك لتشابه مخططاتهما ووظائفهما من حيث العمارة والإيواء.

Résumé:

Cette étude est consacrée à la medersa de Sidi Boumedien à Tlemcen, elle est considéré comme un model important des medersas maghribins au moyen âge.

Le but de cette étude est de connaître la date et l'architecture de ce monument, sa description et son aspect architectural et décoratif, en prenant en considération la nature de son plan, ses éléments, ses caractéristiques, son originalité et sa relation avec le rite malikite unique au Maghreb et avec les ribats anciens comme Sousse et Monaster en Tunisie en vue de leurs ressemblances architecturales et fonctionnelles.

نشب صراع مرير بين الدولتين الزيانية بتلمسان والمرينية بفاس بعد سقوط الدولة الموحدية سنة 668هـ / 1269م على يد المرينيين، وذلك لأسباب عديدة: سياسية واقتصادية واجتماعية، تعرضت فيها تلمسان للعديد من الغزوات المرينية كان أشدها الحصار الطويل لتلمسان (698-706هـ / 1298-1307م)، ثم تجدد ذلك الصراع مرة أخرى في عهد السلطان أبي الحسن حيث حاصر المدينة سنة 735هـ / 1335م، وقبيل سقوط تلمسان في يد أبي الحسن المريني بمقتل سلطانها أبي تاشفين عبد الرحمن سنة 737هـ / 1337م كانت جحافله قد وطأت معظم أراضي المغرب الأوسط حتى بجاية واستولت على مدنه وأريافه وقراه، وبالرغم مما حققه أبو الحسن وبعده ابنه أبا عنان فارس من استيلائهم على تلمسان وتمكنهم من قتل السلاطين الزيانيين أو إخراجهم منها لأكثر من مرة وتشريدهم في البراري والفيافي فإنهم لم يكونوا لينعموا بممتلكاتهم، إذ لا يلبثون أن يغادروها تحت الضغط المباشر وحرب الزيانيين لهم من أتباعهم من القبائل التابعة لهم، فيعودون إلى المغرب منهزمين، ويعود الملوك الزيانيين لعاصمتهم تلمسان، ويعودون معها إلى إعادة ترميمها وإصلاح ما تصدع أو اندثر منها.

ويبدو أن أبا الحسن لم يكن ينظر لتلمسان في حربه للزيانيين نظرة عداء، بل كان يعدها واحدة من مدن مملكته: كفاس ومكناس وغيرها، ولا أدل على ذلك من اتخاذه لمدينة المنصورة بها عاصمة له، وقيامه فيها بحركة تعمير وإصلاح وترميم واسعة، أتبعها بحركة انشاء جديدة لمجموعة معمارية ضخمة، وهي عبارة عن مركب يتألف من جامع ومدرسة وضريح وقصر ومنازل سكنية وغيرها، واختار لهذا المركب موقعا خارج أسوار تلمسان بالجنوب الشرقي منها على بعد ميلين، بربض العباد أو قرية العباد.

موقع المدرسة ومحيطها الطبيعي والوظيفي (شكل 1):

والموقع(*) له مكانة دينية خاصة لدى سكان تلمسان وعلمائها وصلحائها وحكامها، واسم المكان دليل على ذلك. فالإسم «العباد»، إسم له دلالته الدينية ومفرده عابد (على

وزن فاعل) وهو لا يبعد عن تلمسان بأكثر من 2 كلم إلى الشرق منها، وقد فتح في إتجاهه بسور تلمسان باب سمي باب العباد أو باب سيدي أبي مدين فيما بعد، ويبدو أن المكان كان ملتقى المتصوفة المنقطعين للعبادة، كما كان ملتقى تجمع العلماء الدارسين؛ فقد كان يحتوي على مدافن ورباط، والرباطات في هذه الفترة لم يكن لها دور دفاعي أو وظيفة عسكرية، ولكنها كانت قد تحولت منذ مدة غير قصيرة إلى منتدى للزهاد والمتصوفة والمنقطعين للعبادة وكانت الشهرة الدينية والعلمية للمكان تستقطب أعدادا كبيرة من الطلبة الراغبين في تلقي العلوم والمعارف كما كانت تستقطب العلماء والمدرسين(44) لما كان يشيعه من أجواء علمية وثقافية، وكان من توفي من العلماء والصلحاء يجد له مدفنا فيه، وكان في مقدمتهم في ذلك أبي مدين شعيب(45) الذي اختار هذا المكان ليكون مثوى له وهو يغمض عينيه في عهد الخليفة الموحدي الناصر وهو قادم إليه بمراكش بدعوة منه. ثم جاءت سلسلة أخرى من الأضرحة والقبور لعلماء وافتهم المنية بتلمسان سواء كانوا من أهل المدينة أو نازلين بها أو عابري سبيل. وقد تحولت تلك الأضرحة والقبور على مر الأيام إلى مزارات للدعاء والتبرك، وتساوى في ذلك جميع فئات المجتمع من حكام وعلماء وبسطاء الناس.

وكان **العباد السفلي** عامرا بالمساجد والأضرحة وكان عدد المساجد به لا يقل عن خمسة بمآذنها، وكانت تجاورها أضرحة وقبور للصلحاء، وقد اندثر معظم تلك المباني ولم يبق منها اليوم إلا بعضا من آثارها(46).

ولم يكن **العباد العلوي** يخلو بدوره من المساجد وكان به الرباط الذي ذكرناه آنفا، كما كان يشتمل على مدافن، حل محلها الحي السكني الذي ما يزال إلى اليوم فضلا عن زوايا لاستقبال الأولياء والصالحين وعابري السبيل وإسكانهم.

ويبدو أن العباد السفلي بدأ يفقد أهميته في عهد أبي الحسن ليعوضه العباد العلوي وربما هو ما دعا أبا الحسن إلى اختياره لبناء مجموعته المعمارية(47) حيث تميز موقعه بالإرتفاع ويشرف على العباد السفلي من عل العباد، وقد جعل أبو الحسن من مدفن أبي مدين في العباد العلوي نواة مجموعته المعمارية(48).

وأبي مدين هو الولي الشهير أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري ضجيع تلمسان المتوفى سنة 594هـ / 1197(49)، وقد تجاوزت شهرة أبي مدين المغرب إلى الأندلس والمشرق.

تاريخ المدرسة وأسماؤها:

في هذا المكان بالعباد بظاهر تلمسان أنشأ أبو الحسن مدرسة سنة 747هـ / 1347م بعد ثماني سنوات من اتمام الجامع (739هـ / 1339م)، وقد أشار إلى ذلك ابن مرزوق بقوله: «... وبالعباد ظاهر تلمسان، وحذاء الجامع.. أنشأ مدرسة وبالجزائر مدارس مختلفة الأوضاع بحسب اختلاف البلدان...»(50) وقد سميت المدرسة باسم **المدرسة الخلدونية**، أطلق عليها هذا الاسم في وقت متأخر ربما بسبب ما أنجبته هذه المدرسة من فطاحل العلماء **كعبد الرحمن بن خلدون** الذي درس بين جدرانها(51).

وكانت المدرسة ما تزال على روعتها في أوائل القرن 10هـ / 16م حيث يذكرها حسن الوزان في حديثه عن العباد بقوله: «... وهناك أيضا (أي العباد) مدرسة جميلة جدا أسسها بعض ملوك بني مرين حسبما يقرأ ذلك في الرخامتين المنقوش عليهما أسماؤهم...»(52). وقد ظلت مدرسة العباد قائمة تصارع عوادي الزمن بالرغم من أن كثيرا من زينتها وزخرفتها الأصلية قد اندثرت بفعل الترميم والإصلاحات التي أدخلت عليها على مر العصور، فأفقدتها كثيرا من أصالتها.

ويتساءل جورج مارسيه(53) بشيء من التحامل المقنع في معرض حديثه عن المدرسة التاشفينية متعجبا عن اندثار مدارس بني عبد الوادي ملوك البلاد، وبقاء مدرسة وآثار بناها أمراء أجانب (يقصد المرينيون) كمدرسة العباد، متناسيا أن ذلك المصير السيء للمدرسة التشافينية والآلاف العديدة من مؤسسات المدن الجزائرية، كان وراء إندثارها بربرية مواطنيه الإستدماريين لقيم الأمم وحضارتها، وبني جلدته المستعمرون الفرنسيين

الذين لم يدخروا جهدا في تحطيم التاريخ المادي للأمة الجزائرية، وتخريب كل ما من شأنه أن يذكرهم بماضيهم التليد وبمفاخر أجدادهم الأبرار.

وقد كان بالعباد الفوقي إلى جانب المدرسة زاوية(**) أو أكثر، تختلف مهمتها ووظيفتها عن المدرسة، فهي للمتصوفة والزهاد يتخذونها مأوى لهم للإقامة والدرس وتلقي العلوم المتنوعة، وذلك دون اعتبار للسن، وكان نظام كليهما مختلف، ولكل منهما شروط وواجبات ملزمة للملتحق بهما. وهذا النوع من الزوايا عبارة عن مؤسسة أو مبنى ذي حجم كبير أو متوسط يحتوي على عدد من الغرف لإيواء الطلبة والعلماء وأبناء السبيل والغرباء عن البلد، وإذا كانت المدرسة والزاوية تشتركان في إيواء الطلبة والعلماء فإن نظام المدرسة لا يقبل إلا الطلبة المنقطعين للعلم ويمنع إيواء أبناء السبيل والغرباء عن البلد، كما يمنع المقيمين في الزوايا القريبة أو البعيدة، وكانت تلحق بالزوايا ميضآت وأسبلة (عيون عمومية) كما يعين لها أساتذة للدراسات العليا، بحيث تصبح الزاوية في هذه الحالة مدرسة أكثر منها زاوية، وهو ما يؤدي إلى عدم التمييز في المصطلح، إذ أن اسميهما يطلق عليهما أحيانا دون تحديد وكانت الزوايا على نوعين: زوايا داخل المدن، وزوايا خارجها بالضواحي وقد أهملت النصوص التاريخية الحديث عن زاوية العباد الفوقي منذ بناء المرينيين للمجموعة المعمارية به.

وكما اتصلت الزاوية بالمدرسة من حيث وظيفتها فقد اتصلت من جهة أخرى بالرباط وعلاقتها به تتمثل في نظامها المعماري وتخطيطها الهندسي وهو ما سوف نذكره لاحقا، فضلا عن علاقتها التاريخية.

الوصف المعماري والأثري لمدرسة سيدي أبي مدين:

تشكل المدرسة إحدى المباني التي شيدها أبو الحسن في العباد، وتقع إلى الغرب من الجامع وعلى مستوى طبوغرافي أكثر ارتفاعا منه، ويفصلها عنه رواق معقود، وقد ذُكرت

المدرسة من حيث التأسيس والمؤسس والأحباس الموقوفة عليها في اللوحة الرخامية المثبتة في جسم الدعامة الأولى يسار بلاطة المحراب العمودية في جامع سيدي بومدين المجاور لها. وذلك في العبارات التالية: «**الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، أمر ببناء هذا الجامع المبارك والمدرسة المتصلة بغربيه مولانا السلطان الأعدل أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبو الحسن**»(54). أما تاريخها فقد نُص عليه إجمالا مع تاريخ الجامع في كتابة أثرية تأسيسية في شريط بواجهة الجامع، ونصه «**الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان علي بن مولانا أبي سعيد عثمان ... أيده الله ونصره سنة 739هـ...**».

غير أن هذا التاريخ **تاريخ الجامع** وليس **تاريخ المدرسة**، **فتاريخ المدرسة** يوجد ضمن مجموعة أبيات شعرية عددها تسعة، نقشت في شريط يحدد بداية ارتفاع القبة في بيت الصلاة بالمدرسة نفسها. ويشير أحد هذه الأبيات إلى التاريخ الفعلي للمدرسة وهو **7 من شهر ربيع الثاني عام 749هـ /أوت 1347م**(55).

ومن هنا فإذا صح هذا التاريخ الأخير وهو صحيح، فإن المدرسة بنيت بعد ثمان سنوات من بناء الجامع المجاور، ولكن يبدو أن هذا التاريخ هو تاريخ الإنتهاء من الأشغال بها، وبداية اضطلاعها بوظيفتها التي شيدت من أجلها، كما يبدو أن أبا الحسن أمر ببداية الأعمال في المدرسة قبل قيامه بمهماته العسكرية في افريقية الحفصية خلال الفترة 748-749هـ / 1346-1347م موكلا أمر تلمسان والمغرب والمغرب الأوسط إلى ابنه أبي عنان(56)، فبنيت المدرسة تحت رعايته.

وكانت المدرسة مازالت تحظى بالعناية والإهتمام، وتقوم بمهمتها على أحسن وجه في أوائل القرن 10هـ / 16م، حيث يصفها حسن الوزان بقوله أنها جميلة جدا(57). وبالرغم من إقامة الزياني بتلمسان مدة سنة ونصف وتدريسه لطلبتها في العباد، فإنه لم يأت على ذكر المدرسة(58)، وعندما زارها بارجيس في منتصف القرن 13هـ / 19م كانت قد تحولت إلى وضع يرثى له من الإهمال والتهديم، فبعض حوائطها سقطت وفوارتها

وحوض صحنها امتلأ كل منهما بالردم والركام(59)، ولا شك أن الاحتلال الفرنسي وإدارته في غزوه لتلمسان يتحملان المسؤولية الرئيسية في المآل الذي آلت إليه المدرسة وحي العباد بصفة عامة(60). ذلك أن الحي كاد يخلو من سكانه بسبب ذلك وأُهملت مؤسساته لسنوات طويلة خلال الغزو والحرب بين الأمير عبد القادر وقوات الإحتلال.

الشكل العام للمدرسة (شكل 2):

تتخذ المدرسة شكلا هندسيا مستطيلا يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي تفتح بمدخل تذكاري في واجهة بسيطة شكلا وزخرفة، ويوصل إليه عبر درج صاعد ذي 15 مرقاة حجرية توصل إلى شرفة صغيرة تتقدم المدخل الذي يحتل الواجهة الشمالية الغربية(61).

المدخل الرئيسي للمدرسة (شكل 3):

ويقع بابه في خط محوري مع مدخل بيت الصلاة ومحرابه عبر الصحن، وهو بذلك يشبه مداخل الجوامع المرينية كالمنصورة وسيدي أبي مدين وسيدي الحلوي، أما المدخل نفسه فيحتل مستطيلا عموديا بارزا عن سمت حائط الواجهة وهو على ثلاثة مستويات:

الأول: من أرضية عتبة الباب إلى منبت العقد ويخلو من أي مظهر فني أو زخرفي.

الثاني: ويمثل الإطار الذي يحيط بالعقد من منبته إلى أسفل نهاية حائط الواجهة، وهو أهم جزء في الواجهة، ويتألف من عقده الحدوي المركب والمتجاوز، اتساعه 2.47م يحيطه عقد آخر مفصص فصوصه متقاطعة ومتبادلة بين التدبيب والتجاوز ويتكون من 21 فصا شُكلت الفراغات بين الفصوص بقطع الزليج الملون باللون الأخضر، تليه عقود تغليفية زخرفية عديدة. ويشغل أركان العقد من الجانبين فسيفساء خزفية قوامها طبق نجمي مركب يتألف من نجمة مركزية ذات 16 رأسا تشع منها أضلاع باللون الأبيض أو

البني، ويحيط بذلك أطباق نجمية أخرى خماسية الأضلاع تحيط بنجوم مركزية أخرى. وإلى جانب هاته الأطباق النجمية أطباق أخرى أصغر حجما قام الفنان فيها بتنظيم زخرفته متدرجا في حجم الأطباق النجمية من الأكبر إلى الأصغر في تأليف وانسجام وتطابق وتناغم ينم عن مقدرة فائقة وتحكم في الصنعة. ويسود هذه التكوينات ألوان متعددة كثيفة وساطعة أجملها على الإطلاق اللون الأبيض ثم البني والأزرق والأصفر والأخضر، كما قد يتخذ اللون الواحد أكثر من درجة لونية ما عدا الأبيض.

ويحيط **العقد وأركانه** شريط مستطيل مكوّن بقطع من الآجر الأحمر بأشكال متعددة مقسم إلى أجزاء تتصل ببعضها بعناصر على هيئة الميمات أو عُقد، ورُصعت أجزاء الشريط بقطع خزفية خضراء اللون، ويلي هذا التكوين الزخرفي في أعلاه إطار آخر يحيط المدخل في أعلاه وعلى يساره، ويبدو أنه كان ممتدا على يمينه بطريقة مماثلة للجهة المقابلة ولكنه اندثر في وقت مجهول، ويتألف الإطار من زخارف قوامها عناصر على هيئة المعينات التي تعرف باسم الدرج والكتف(62) الشبيهة بزخارف واجهة مئذنة الجامع المجاور حيث تحتل وسط المعينات ورقة ثلاثية ترصعها هي والمعينات قطع خزفية من الزليج باللونين الأخضر والبني.

وإلى **يسار المدخل** أسفل امتداد الإطار السابق على مستوى منبت العقد تقوم **لوحة فنية** في غاية الرقة والجمال وحسن التأليف ودقة الصنع، قوامها **عقد حدوي مفصص مركب**، يستند منبته وإطاره من الجانبين على صف من أعمدة صغيرة عددها في كل جهة أربعة أعمدة، ويشكل مفتاح العقد دائرة صغيرة يرتكز عليها **معين قائم على رأسه** تتوسطه دائرة أخرى، ينتهي في أعلاه بامتداد على شكل **لسان** على **هيئة وهج مضيء كشمعة مشتعلة** لا شك أن ذلك له دلالته الفلسفية والدينية لدى الفنان المسلم فهي رمز **للضوء المنبعث** من **المصباح** أو **الشمعة في المشكاة**، وقد صيغ هذا التكوين الزخرفي بزليج متعدد الألوان أساسها اللون الأبيض والأزرق والبني بدرجتيه الفاتح والغامق. غير أن التفاصيل السفلية لهاته اللوحة القائمة حاليا في المدخل تختلف عن تفاصيل اللوحة التي نشرها الأخوان مارسيه في أوائل القرن الحالي 1903م(63) **(شكل 4)**.

أما المستوى **الثالث** والأخير: فهو الجزء الذي يعلو حائط الواجهة وينتهي بطنف بارز مائل على هيئة منحدر مغطى بقرميد نصف أسطواني جزؤه الخارجي أخضر اللون مزجج، وذلك لحماية المدخل من عوامل الطقس وأمطار الشتاء.

ويلي باب الدخول دركاه (سقيفة) عبارة عن فراغ مستطيل الشكل مقاسه 2.50م×1.35م وهو همزة الوصل بين الباب الخارجي والصحن ويسمح في الوقت نفسه بانفتاح المصراعين الخشبيين وعلى جانبي السقيفة بابان صغيران: الأيمن منكسر يؤدي إلى الميضأة عبر رواق مستطيل، والأيسر مفتوح على درج صاعد إلى الطابق العلوي.

الصحن (شكل 2):

وهو مستطيل يمتد من الجنوب إلى الشمال عمقه أكبر من عرضه ومقاساته 16×14م، يحيطه من جهاته الأربعة رواق عرضه 1.75م يشرف على الصحن من جهتيه الجنوبية والشمالية ببائكة ثلاثية العقود بينم بائكتيه الشرقية والغربية رباعية، وترتكز العقود الحدوية المنكسرة قليلا في مفتاحها على دعامات مستطيلة أو على شكل حرف السلام الأوسط في الأركان، ارتفاعها 1.60م، وتختلف المسافة بين الدعامات في الجهتين الشمالية والجنوبية فالوسطى 2.60م والجانبيتين 1.40م بينما المسافة بين الدعامات الباقية في الجهتين الشرقية والغربية حوالي 2.20م.

ويتوسط الصحن **حوض مستطيل** مقاساته 3.20×2.60م يتصل جنوبا بحوض آخر مربع الشكل أصغر حجما، وذلك عبر ساقية صغيرة طولها 1.60م ويرجح أن **الحوض الصغير** كانت به **فوارة** تنفث مياها جارية كانت تصب في الحوض الكبير. وقد غطيت أرضية الصحن بتبليطات من زليج مربع الشكل صغير الحجم (10سم×10سم) ذي ألوان متعددة.

بيوت الطلبة:

ينتهي الرواقان الشرقي والغربي نحو الخارج بمجموعة من الحجرات عددها 12 حجرة بمعدل 6 حجرات في كل جهة ويعلوها عددا مماثلا في الطابق العلوي.

والحجرات مستطيلة الشكل مقاسها 2.80م×2م تفتح على الرواق المحيط بالصحن بأبواب صغيرة معقودة بعقد (متجاوز منكسر ارتفاعه 1.85م واتساعه 0.70م ويعلو كل باب من أبواب الحجرات نافذة صغيرة للإضاءة والتهوية عرضها 0.35م وتحتوي كل حجرة في داخلها على دخلة حائطية مستطيلة على هيئة رف عرضه 0.37م لوضع الكتب أو المصباح الزيتي. وقد وزعت هاته الحجرات بطريقة نمطية متماثلة ومتناظرة.

المصلى: وهو يتصدر الصحن في جهته الجنوبية، ويعد بمثابة مصلى وقاعة درس في آن واحد، يفتح على الصحن بباب محوري مع المحراب والمدخل الرئيسي عرضه 2.40م ويغلق بمصراعين. والقاعة نفسها مربعة الشكل طول ضلعها 5.70م

المحراب: يتصدر حائط القبلة الجنوبي الشرقي محراب مجوف خماسي الأضلاع عرض فتحته 1.50م وعمقه 2م تغطيه من الداخل قبيبة صغيرة تستند على شريط زخرفي، أما جزؤه السفلي فكسي ببلاطات خزفية من العصر التركي العثماني، أما من الخارج فيعلوه عقد حدوي منكسر يستند على عمودين رخاميين مشغولين بدنهما أملس وتاجهما مغربي الطراز مربع الشكل ذي زخارف نباتية وهندسية، والعقد مفصص بفصوص عددها 15 فصا على هيئة الصنجات تتوسطها زخارف قوامها العناصر الهندسية والنباتية من المراوح وأنصافها والزهيرات والأوراق ويعلو مفتاح العقد وأركانه زخارف مماثلة لزخارف الصنجات ومن أبرزها عنصر على هيئة الصرة أو دائرة تحلي ركني العقد الذي يعلو مفتاحه دائرة يتوسطها إسم الجلاله «اللّه» مقرونة بكلمة «أكبر» وذلك بالخط المغربي.

ويحيط المحراب من جهاته الثلاثة إطار على شكل أشرطة محصورة بين حواشي ضيقة ذات عناصر زخرفية نباتية وهندسية دقيقة. أما الشريط المحيط بالمحراب فيحمل كتابات على الشكل التالي:

الشريط الصاعد الأيمن: وما أمروا إلا ليعبدوا الله

الشريط الأفقي: مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة

الشريط العمودي الأيسر: ويُؤتو الزكاة وذلك دين القيمة.

الإطار الثاني: ويتألف من عناصر المعينات يتوسطها اسم الجلالة **«الله»** بالخط الكوفي الزخرفي على أرضية نباتية.

ويمتد شريط كتابي على طول حائط القبلة ابتداء من مستوى منبت عقد المحراب، وآخر مماثل له حجما فوق الإطار الثاني الذي يعلوه، وترتكز عليه مجموعة الشبابيك المخرمة التي تعلو المحراب، والمضمون الكتابي للشريطين متماثل، وهو عبارة عن أدعية متكررة مثل **«أنعمت يا رب فزد فلك الحمد»** أما المساحة المحصورة بين الشريطين في حائط القبلة فهي ممتدة مع امتداد الحوائط الأربعة للمصلى وتكسوها طبقة جصية قوام زخارفها **شبكة من المعينات** يتوسط كل منها اسم الجلالة **«الله»** بالخط الكوفي على أرضية نباتية.

كما يعلو **حائد القبلة فوق المحراب** صف من حشوات مستطيلة تشغلها دخلات معقودة بعقود نصف دائرية مفصصة تتوسطها ثلاث شبابيك جصية مخرمة ذات عقود نصف دائرية تحصرها دخلتين مصمتتين على كل جانب وتتضمن التخريمات زخرفة قوامها أطباق نجمية، أما الحشوتين الجانبيتين فزخارفهما نباتية من المراوح وأنصافها مشكلة على هيئة عنصر **الكتف والدرج على أرضية من السيقان النباتية**، كما يعلو الشبابيك المذكورة مستوى آخر يتألف من إفرزي جصي قوام زخارفه **أطباق نجمية** محصورة في أسفلها وأعلاها بشريط ضيق ذو **زخرفة كتابية** بالخط النسخي تتكرر فيه العبارة **«الملك لله»، اليمن لله، البقا لله»**(64).

الجدار المقابل للقبلة: وينفتح فيه باب المصلى، ويبدو أن الزخارف في هذا الحائط أكثر زخارف بيت الصلاة حفاظا على أصالتها إذ تكتنف باب الدخول إطارات وأشرطة تختلط

فيها الزخارف الهندسية والنباتية مشكلة **عناصر المعينات**، كما تكتنفه **لوحات مستطيلة** تشغل جزئه الأسفل **عقود مفصصة** قوم زخارفها اسم الجلالة **«الله»** تتوسط المعينات، ويعلو هذا التكوين شريط قوام زخارفه العناصر النباتية والكتابية تتكرر فيها **أدعية بالخط النسخي** شبيهة بكتابات حائط القبلة ومنها عبارة **«الملك لله»** ويقوم على هذا الشريط بائكة زخرفية من دخلات صماء معقودة بعقود مفصصة تتوسطها الأطباق النجمية وتكوّن هاته الدخلات ثلاث شبابيك مخرمة فوق الباب مباشرة ترصعها قطع زجاجية ملونة بالأخضر والأصفر والأزرق.

الجزء السفلي من حوائط المصلى:

وتكسوها كسوة من الزليج قوام زخارفه أطباق نجمية متكررة ومتماثلة يسودها اللون الأخضر والأزرق والأصفر والبني.

سقف القاعة:

وقد غطيت القاعة بكاملها **بقبة خشبية كبيرة** يكسوها من الخارج هيكل هرمي رباعي مبني ويتوسط القبة الداخلية **نجمة مركزية مشعة** ذات 32 **ضلعا** تشع نحو الخارج بأضلاع ملونة بألوان ذهبية صفراء تشكل في النهاية **طبقا نجميا** أضلاعه بعدد أضلاع النجمة، ورصع كل ركن من أركانها بربع ذلك الطبق النجمي. ويمتد أسفل القبة افرزي هو بمثابة قاعدة لها يتضمن **كتابة بالخط النسخي المغربي الأندلسي** مضمونه **أبيات شعرية تذكر تاريخ التأسيس** 747هـ(65). ويتضح من الفحص الأثري والدراسات والنصوص التاريخية أن المدرسة تعرضت كبقية المجموعة المعمارية في العباد في أجزاء كثيرة منها إلى الترميم والإصلاح في عمارتها وزخارفها وذلك في فترات مختلفة، ولكن على النمط القديم الأصيل لها، وإذا كانت قد حافظت على جوهرها المعماري فقد أتت الترميمات على الكثير من تلك الزينة الأصيلة.

ملاحق المدرسة: يكتنف قاعدة الدرس أو المصلى على جانبيها الشرقي والغربي جناحين يفتح كل منها على الرواق الذي يتقدم بيوت الطلبة.

الجناح الشرقي:

وهو عبارة عن مجموعة من الحجرات عددها أربعة يتقدمها فناء صغير مكشوف يتصل بالرواق الشرقي المشرف على صحن المدرسة بباب عرضه 1.34م، أما الفناء فمستطيل الشكل مقاساته 3.20م عرضا و3.85م عمقا تفتح عليه حجرتان جنوبا وعددا مماثلا من الحجرات شرقا وكلها تتلقى الإضاءة والتهوية منه، ويرجح أن حجرات هذا الجناح كانت مأوى لمدرسي المدرسة وأساتذتها لموقعه المنعزل والمتميز عن بقية الأجنحة.

الجناح الغربي:

ويتصل بالرواق المشرف على الصحن في جهته الغربية بباب مماثل لباب الجناح الشرقي، ويتكون من فراغ مربع غير مسقوف حاليا، يتوسطه جزء من حائط مندثر يقسمه إلى قسمين متساويين كل منهما مستطيل الشكل يمتدان من الشرق إلى الغرب. ويرجح أن هذا الجناح كان مخزنا مهمته حفظ أدوات المدرسة وحاجاتها، أو ربما كان مكتبة وهي عنصر لا تخلو منها مدرسة.

وقد عاينت في الجزء الخلفي الجنوبي للجناح بعض القبور وشواهدها(66) معظمها من الفترة العثمانية وما بعدها، وذلك لما يحمله بعضها من تواريخ، وكذلك لطراز الكتابات والزخارف المحفورة عليها، غير أن مارسيه لم يذكر شيئا عن هذين الجناحين في إشاراته إلى المدرسة، كما لم يشر إليهما الأستاذ بورويبة في إشارته لملاحق الجامع في دراسته له ضمن كتاب «الفن الديني الإسلامي بالجزائر»، ص 198.

الطابق العلوي: يوصل إليه بدرج صاعد منكسر يسار المدخل الرئيسي للمدرسة، ويتكون من رواق يتقدم الغرف، وهو عبارة عن ممشى غير مسقوف يعلو أروقة الطابق

الأرضي المحيطة بالصحن، وتُفتح عليه غرف مماثلة ومطابقة لحجرات الطابق الأرضي، ولكن أبوابها تخلو من النوافذ التي تعلوها لانفتاحها على الفضاء المفتوح الذي تحصل من خلاله على الإضاءة والتهوية الكافية عكس الحجرات السفلية التي تقوم الأروقة حاجزة لذلك.

أما الجهة الجنوبية وهي التي تشغلها قاعة الدرس في الطابق الأرضي، فتخلو من الغرف لقيام السقف المنحدر الهرمي الشكل الذي يغطي القبة الخشبية. بينما خلا سقف الجناحين من أي تكون معماري أو فني فقد اكتفى المعمار بجعله مسطحا مقرمدا.

الميضأة (شكل 2): بينت الميضأة خارج المدرسة بارزة عنها ملاصقة لركنها الشمالي الغربي، وذلك لأن حكمها من حيث وظيفتها يختلف عن حكم ميضآت المساجد، فاستخدامها يختص بالطلبة المقيمين بها فقط، وكان ذلك من القوانين المسيرة للمدرسة التي جعلتها قصرا على طلبة العلم فيها دون غيرهم: إما بنص الواقف أو بتواتر العرف ما لم يكن منصوصا على غير ذلك في الوقفية، وتبعا لذلك، لم يكن جائزا للغرباء أو العامة من غير الطلبة والموظفين أو المستخدمين فيها الإنتفاع بمرافقها وملحقاتها، بذلك أفتى الشيخ أبو الحسن القبسي على ما أورده الونشريسي في فتاويه ونوازله أنه: «... **في هذا المعنى أنه لا ينبغي الدخول إلى المدراس لقضاء الحاجة بها والوضوء والشرب من مائها من لم يكن من أهلها، ولا أعدت الميضأة والشرب إلا لأهلها...**»(67).

وميضأة مدرسة سيدي أبي مدين وإن كانت تختلف من حيث موقعها وحجمها عن ميضأتي الجامعين (سيدي أبي مدين وسيدي الحلوي)، فإنها متشابهة إلى درجة التطابق معهما من حيث الكتلة المعمارية والتخطيط العام والتوزيع الداخلي.

فالميضأة تقع في الركن الشمالي الغربي لمبنى المدرسة على هيئة بروز خارجي يقدر بـ 5.50م ويشكل هيكلا بنائيا مستطيلا عرضه 7.50م ويوصل إليه عبر دهليز مستطيل طوله 3.50م وعرضه 0.90م، ويفتح عليه بباب عرضه 1م إلى يمين المدخل الرئيسي للمدرسة، ويشكل الدهليز والباب ممرا منكسرا على شكل حرف اللام الإبتدائي، ويؤدي الباب

مباشرة إلى **فناء مكشوف** مستطيل مقاساته 4م×2.80م، يتصدره في الجهة المقابلة للباب وهي الجهة الشمالية **حوض للوضوء** مستطيل الشكل مساحته 2.10م×1.50م يعلوه عقد حدوي متجاوز يشكل ظلة له، وتتوزع **بيوت الخلاء** حول الفناء وتفتح عليه بأبواب ضيقة يتراوح مقاسها بين 0.40م و0.50م، ويقدر عددها بثماني بيوت، وجميعها مستطيلة الشكل، الركنية منها متماثلة ومقاساتها 1.60م طولا و1 م عرضا، أما الباقية فهي أيضا متماثلة فيما بينها، ومقاساتها 1.40م طولا و0,90 عرضا، وتعلوها جميعا من الداخل فتحات للإضاءة والتهوية وغطيت بأقبية متقاطعة، وحفرت أكنافها بطريقة مخفية عن الأنظار حتى وإن ظلت أبوابها مفتوحة.

ويلتف حول الحوائط الأربعة لبيوت الخلاء مياه جارية في ساقية ممتدة ملتصقة بالجدران تكونها أنصاف قنوات فخارية كأرضيه لها وتتصل هاته الساقية بحوض صغير في كل مرحاض يتقدم الحفرة المستديرة أو الكنيف ويتصل بها أيضا.

تخطيط بيوت الخلاء: أما من حيث التصميم المعماري فإنّ بيوت الخلاء اتخذت مظهرا منحرفا على هيئة **حرف اللام الإبتدائي** في أوضاع مختلفة شبيهة بالنظام المعماري لمراحيض ميضأتي جامع سيدي أبي مدين وجامع سيدي الحلوي بحيث يتعذر على الشخص الواقف في الفناء مشاهدة ما في داخل المرحاض بفضل هذا التخطيط المعماري لها.

أما أرضية الفناء فقد غطيت بقطع من الزليج المربع الشكل ذي المقاسات 10×10 سم يسودها اللون الأبيض والأسود والبني والأخضر.

المظهر المعماري للمدرسة: مخطط المدرسة وأصله المعماري (شكل 2):

ذكرنا في حديثنا عن تاريخ نشأة المدارس، أنها من مستحدثات الإسلام، وأنها ظهرت أول ما ظهرت في المشرق انطلاقا من ايران والعراق إلى الشام ومصر ثم المغرب

والأندلس. وإذا كانت المدرسة قد وصلت إلى المغرب من المشرق فإنه لم يكن للمشرق تأثير على تنظيمها المعماري وتخطيطها إلا في أضيق الحدود -إذا ما استثنينا وظيفتها- وذلك لتمذهب المغاربة بمذهب واحد هو المذهب المالكي.

لقد ارتبط نظام التخطيط المعماري للمدارس في المغرب مثلما هو عليه الحال في المشرق بطبيعة الوظيفة التي أنشئت من أجلها وبالأغراض التي يرجى منها تحقيقها، من حيث ضرورة احتوائها على حجرات وغرف لإقامة الطلبة، غير أن مدارس المغرب وإن كانت تتشابه مع مدارس المشرق في هذا الجانب، فإنها تختلف عنها من حيث تخطيطها، فهي تخضع من حيث هذا التخطيط ومن حيث تركيبها وعناصرها إلى نموذج معماري محلي تقليدي أصيل وفريد، وذلك قبل أن يدخل عليه في فترات معينة ومحدودة تأثيرات مشرقية مصرية مست بعض الجوانب في التخطيط دون أن تغير من الجوهر الأصلي المحلي له، كالمدرسة المستنصرية في إفريقيا والمدرسة البوعنانية في فاس(68).

ويعد نظام تخطيط مدرسة سيدي أبي مدين بالعباد أحد النماذج المعمارية الهامة للمدارس المغربية بصفة عامة، والمدارس المرينية في إمارة تلمسان الزيانية أو مدارسهم بالمغرب الأقصى، وفي مدينة فاس نفسها بصفة خاصة (شكل 5) وهو مرتبط بعدد من الأنظمة التخطيطية لمنشآت متنوعة الوظائف منها الدينية والمدنية، ولعل أهمها النظام التخطيطي للمساكن والأربطة والزوايا المغربية وسوف نستعرض العلاقة بين مخططات هذه المباني.

فالتخطيط المعماري للمدرسة يقوم في جوهره على صحن أوسط مكشوف تحيط به أربعة أروقة معقودة تشرف عليه وتفتح عليه حجرات إقامة الطلبة ويتصدره بالجهة الجنوبية الشرقية بيت صلاة من قاعة واحدة هي قاعة التدريس يقابلها في الجهة الشمالية الشرقية كتلة المدخل. وهي نفس الأسس الجوهرية في تخطيط الأربطة والزوايا.

وتعد المدرسة أيضا واحدة من سلسلة المدارس التي شيدها أبو الحسن، ولكنها تختلف في نظامها المعماري وتخطيطها عنها لاكتمال هذا التخطيط هنا لدرجة أنه يمكن

اعتبارها نموذجا لذلك التخطيط، وفي مقدمة تلك المدارس مقارنة بمدرسة الصهريج والمدرسة المصباحية(69) بمدينة فاس، وربما كان موقع مدرسة سيدي أبي مدين في مكان متسع خلافا لمدارس فاس سببا في انتظام تخطيطها وانسجامها وتناسقها بحيث اشتملت على محور عمودي كامل عبارة عن خط يمتد من منتصف المدخل الرئيسي للمدرسة إلى منتصف محراب بيت الصلاة مرورا بمدخله وبمنتصف الصحن ويقسم المدرسة عموديا إلى قسمين متساويين وهي ظاهرة عرفتها المدارس المغربية في هذه الفترة(70)، غير أن هذا المحور العمودي المطبق في مدرسة سيدي أبي مدين، لا ينطبق على المدارس المرينية في فاس إلا في أضيق الحدود وبطريقة جزئية، ذلك أن جل مداخل تلك المدارس مقتبسة من المداخل المنكسرة للمساكن(71) وربما كان ذلك بسبب موقعها طبوغرافيا وسط زخم عمراني من المنشآت المختلفة.

إن هذا التخطيط المعماري للمدارس المغربية يرتبط بالتقاليد المغربية المحلية، وذلك من حيث انفتاح حجرات وغرف الطلبة على فناء مكشوف، إذ اقتبس هذا النظام من التخطيط المعماري للأربطة المغربية(72) ذات الوظيفة العسكرية الدفاعية من حيث إقامة المتطوعة فيها حراسة ومراقبة للحدود الإسلامية وثغورها من طرق العدوّ لها، فقد اقتضت الظروف العسكرية المتحكمة في المنطقة آنذاك من كثرة غزوات السفن البيزنطية المرابطة في قواعدها جنوب إيطاليا لسواحل إفريقيا (تونس) من تأسيسها لرد عدوانها، وهي أربطة تعود إلى الفترة الإسلامية المبكرة من القرن 3هـ/ 9م، وإذا كانت قد اندثرت معظم تلك الأربطة فإن اثنين منها ما يزالان قائمان شاهدان على ذلك، وهما رباطي سوسة والمنستير(73) (شكل 6).

وكانت هذه الأربطة قد تحولت منذ القرن 4هـ/ 10م إلى ما يشبه الزوايا من حيث وظيفتها، فقد صارت ملجأ للزهاد والمتصوفة والصلحاء والعلماء، أخذ الطلبة يفدون عليهم قيها للدرس والتحصيل(74)، وحتى الزوايا التي أُنشئت خلال نفس الفترة وبعدها اتخذت نظام الأربطة نظاما لها، وظل الحال على ذلك حتى وصل نظام المدرسة قادما من

المشرق، فوجد هيكلا معماريا متوارثا ومعروفا في نمطه ووظيفته وهو نظام الأربطة، يحقق الغرض من التحصيل والدرس والإقامة معا، فأُتخذ نظاما للمدرسة لتشابه الوظيفة.

وتتميز مدرسة سيدي أبي مدين بالعباد بأنها مدرسة للدرس والعلم فقط، لم تلحق بها مئذنة لعدم اتخاذها جامعا، ولم يلحق بها ضريحا للمؤسس على غرار مدارس المشرق، ولكنها بنيت في مكان مجاور لضريح وجامع، والمدارس التي تلحق بها مآذن هي المدارس ذات الوظيفتين العلمية والدينية تُلقى فيها الدروس وتُؤدى فيها صلاة الجمعة.

وقد اتسم بناء المدرسة كما هو الحال في المساجد بالتوازن والانسجام والتناسق في نظامها المعماري وهو ما يعرف بالسيمترية، وهنا يطرح سؤال عن مصدر ذلك وعلاقته بالنظام المعماري وسبل تعامل المعمار والفنان المريني معها.

لا شك أن ظاهرة التوازن والانسجام المعماري (السيمترية) في المنشآت المرينية في تلمسان وفاس مردها أساسا إلى التطور في علوم الرياضيات والهندسة، وذلك بنفس القدر مع التطور العمراني والمعماري الذي جاء نتيجة تراكم الخبرات والمعارف المعمارية والفنية لدى الفنان والمعمار المغربي اللذين استفادا أيضا من الخبرة الأندلسية القادمة مع الهجرات المتتالية للأندلسيين بمختلف شرائحهم هروبا من أذى الإسبان المنكلين بهم في مدنهم التي كانت تتعرض للغزو الدائم، وبحثا منهم عن مواطن جديدة لهم تمكنهم من العيش فيها وممارسة نشاطاتهم الحرفية والمهنية بها بعد أن ضاقت بهم مناطق جنوب الأندلس تحت حكم إمارة بني نصر(75)، قدموا إلى مدن السواحل المغربية واستقروا فيها.

لقد اتجهت أنظار المستشرقين والدارسين الغربيين في تخطيط المساجد والمدارس إلى اعتبار محاورها خطوط تمتد من منتصف المحراب بحائط القبلة، مرورا ببيت الصلاة والصحن إلى منتصف المدخل في مؤخر الجامع أو المدرسة بالحائط المقابل لحائط القبلة(76) ويلخص الأستاذ أحمد فكري من وجهة نظره معنى المحور بقوله أنه: «خط

مستقيم حقيقي أو وهمي يرتكز على نقطة أو قاعدة ثابتة تنتصف البناء أو جزء من أجزائه بحيث يتساوى البعد بين الأطراف بالنسبة لهذا الخط، أو يقسم البناء أو جزء من أجزائه إلى نصفين أو قسمين مرتبطين متساويين أو متعادلين أو متوازيين متماثلين أو متناسقين...»(77).

وقد كان للمحور في العمائر القديمة والمسيحية(78) أهمية كبيرة في تخطيطها المعماري، مما جعل المستشرقين يعتمدون ذلك المحور محورا في المنشآت الإسلامية مع ما بين هذه المنشآت والمعابد القديمة أو الكنائس المسيحية من اختلاف واضح في طبيعة الوظيفة والنظام المعماري لكليهما فمحور الكنائس البازليكية على سبيل المثال خط يمتد من منتصف شرقيتها مرورا بمنتصف الرواق الأوسط ليستقر في منتصف مدخلها المقابل للشرقية. وبذلك يقسم هذا الخط المحوري الكنيسة عموديا إلى قسمين متطابقين ومتماثلين. غير أن هذا المحور لا ينطبق على محور المدارس الإسلامية، وإن انطبق على بعضها فهو لا ينطبق عليها جميعا مما يدل على أنه ليس المحور الرئيسي فيها، فكثير من تلك المدارس محاورها منحرفة تماما عن مداخلها الرئيسية المقابلة، ويظهر ذلك الإنحراف في انحراف المداخل الرئيسية عن المحراب الذي نلحظه في جميع المدارس المرينية بمدينة فاس، ولا يستثنى منها غير ثلاثة وهي مدرسة الصهريج والبوعنانية وسيدي أبي مدين بتلمسان(79)، فإن محاور هذه المدارس تمتد من منتصف مداخلها الرئيسية إلى منتصف محاربها مرورا بمنتصف صحونها، بحيث يقسمها إلى قسمين طوليين متساويين ومتماثلين.

إن انحراف هذه المداخل الرئيسية عن المحارب في المدارس المرينية بفلس يدل دلالة قاطعة على أن ذلك المحور الذي يعتمده الدارسون الغربيون للمباني الدينية الإسلامية ليس هو محورها الحقيقي الذي يرتكز عليه المعمار في عمله التنفيذي على غرار المحور في الكنائس البازليكية، وإنما محور تلك المباني هو المحور الذي ذكره الأستاذ أحمد فكري وكليفينو (Clevenot)، وهو **جدار القبلة بأكمله** أو الخط الممتد بين طرفيه، وذلك باعتباره محور التوجيه نحو مكة، يتوجه نحوه جموع المصلين في اصطفافهم لتأدية

فريضة الصلاة، وبذلك يظهر لأول مرة في تاريخ العمارة محورا جديدا للمبنى يمثله جدار بأكمله، والجدار في العمارة القديمة كان يمثل إطارا ونهاية، وهو ما لم يتفطن إليه الباحثون الغربيون(80)، وبذلك تميزت العمارة الدينية الإسلامية عن العمارة القديمة والعمارة المسيحية منذ تاريخها المبكر بتأثير من الوظيفة الدينية للمبنى والممارسة العملية لشعيرة الصلاة.

ومن هنا لا يعدو أن يكون ذلك المحور المزعوم عند المستشرقين في المساجد والمدارس المرينية في تلمسان اجتهادا من المعمار المريني بخلق توازن وانسجام معماري وتخطيطي لمبنى متوسط الحجم عدد مستعمليه قليل لتعدد صلاة الجمعة في مساجد المدينة الواحدة في عهدهم حتى وإن ظلت بعض المساجد الشهيرة في المدينة تحظى بإقبال الناس عليها.

إن ذلك التوازن والإنسجام الذي أرادهما المعمار بتوزيعه المتناظر لتلك الأبواب يدخل ضمن معالجته لمظهر السيمترية في العمارة والفنون، وإذا كان قد نجح في التطبيقات الفنية الجمالية عند بداية انتشار الإسلام، فإنه في مجال العمارة ظل يتطور مع تطور علوم الرياضيات والهندسة وتطور المواد المستخدمة في البناء، حتى تمكن بلوغ هدفه من خلال تحكمه في الخط الهندسي والمادة معا، فأبدع بذلك تخطيطا معماريا منتظما ومتوازنا ومنسجما بدأت تباشير تحكمه فيه منذ أوائل العهد الموحدي، ليبلغ قمة ازدهاره في نهاية الفترة أو في العهد المريني -الزياني- الحفصي.

إن فكرة السيمترية أو التوازن والإنسجام الذي يتوخاها كل معمار وفنان مثلما ذكرنا منذ أوائل العهد الإسلامي وقبله، فكرة مرتبطة أساسا بنسبة معنية ومطلوبة في المبنى قياسا، لتحقيق التوازن والإنسجام في المبنى ككل، وبينه وبين مختلف أجزائه وأقسامه، أو بين الأجزاء والأقسام نفسها اعتمادا على مقياس أحد هذه الأجزاء أو الأقسام.

فالنسبة بهذا المعنى تشكل قانونا تخضع له المقاييس العامة للمبنى، أو مقاييس جزء فيه أو أجزاؤه كلها، وهي ضرورية في تحديد جمالية الإنتاج الفني والمعماري للأشكال والمساحات بمختلف أنواعها، وبفضل تطبيقها يقترب المبنى أو الشكل من الإنسجام والتوازن ومتى كانت هذه النسبة مطابقة لحقيقتها، أو قريبا منها كانت الأشكال

والمساحات والمكعبات والعناصر المطبق عليها في العمارة أو الفن مجسدة للكمال أو الإكتمال أو قريبا منه.

إن هذه النسبة هي التي يُطلق عليها مصطلح النسبة الذهبية أو القطاع الذهبي وتحقيقها في العمارة والفنون يعد تحقيقا للوحدة العضوية للمبنى أو الشكل الفني الذي يجسد مظهر التوازن والإنسجام أو السيمترية، وترتبط تلك النسبة في هذه المجالات المعمارية والفنية بأشكال هندسية مساحية معينة ومحددة هي المربع والدائرة والمستطيل، وهي صور هندسية متكاملة فيما بينها ومرتبطة ببعضها، ويتولد عن كلّ منها أشكال مساحية أخرى مماثلة شديدة التنوع(81).

وكان الإغريق أول من اهتم بجمالية الصور الهندسية وأول من درس علاقة الأحجام ببعضها، والعدد الذهبي أو النسبة الذهبية التي توصلوا إليها تنسب إلى عالمي الرياضيات طاليس وفيتاغورس(82).

وقد فضلت العمارة الإسلامية نسبة ذهبية تعتمد التجريد والرمز وتقوم على المربع كعنصر مسطح أساسي يحقق السيمترية والتوازن والتناسق في علاقة الأجزاء والعناصر بعضها ببعض وفقا للنسبة بين طول ضلع المربع ووتره أو بعبارة أخرى جذر2 التي تساوي 1.414 مسايرة للمتوالية الهندسية التالية: 0.125، 0.176، 0.250، 0.354، 0.500، 0.707، 0.1000، 414.1(83).

وهو ما يتحقق في التخطيط المعماري لمدرسة سيدي أبي مدين مما يدل على إمكانية المعمار وتحكمه في أساليب البناء والمواد، ولننظر ذلك في النسبية الذهبية للمدرسة بتطبيق القاعدة الحسابية البسيطة وهي كالتالي: أ:ب = ب:أ +ب (84).

مدرسة سيدي أبي مدين	مقياسها	خارج: 28م×21م داخلي: 19×23.70	28÷21 = **1.333**، 28+21÷28 = **1.75** 19÷23.70 = **1.247**، 23.70 ÷19+23.70 = **1.801**

الهوامش:

ملاحظة: كنا قد تناولنا بالدراسة، المدارس في القسم الأول بعنوان «المدارس الإسلامية: دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها»، وذلك في العدد الأول من مجلة: دراسات إنسانية، السنة 1421هـ / 2001م، التابعة لكلية العلوم الإتسانية، جامعة الجزائر.

(*) – الاسم الأساسي لربض سيدي أبي مدين بظاهر تلمسان إلى الشرق منها هو العباد وكان يتكون من جزئين سفلي وعلوي يسمى كل منهما: العباد السفلي والعباد العلوي، وظل اسم العباد متداولا في المصادر حتى الفترة الاستعمارية حيث غلب اسم سيدي أبي مدين عن الاسم الأول بجزئيه، انظر في ذلك: يحي بن خلدون، *بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد*، ج 1، تقديم وتحقيق وتعليق د. عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر 1400 - 1980، ج1، ص 87، 89، 107، 119، ابن مريم، *البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان*، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، عن النسخة التي نشرها الأستاذ محمد بن أبي شنب سنة 1918، ص 114، 130، 134، 184-185، مولاي بلحميسي، *الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني*، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (ش.و.ن.ت) الجزائر 1979، ص 160.

(44) – G. Marçais, Manuel d'art musulman, l'Architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile, 2 t. A. Picard, Paris, 1926, t. 2, p. 491; G. et W. Marçais, Les monuments arabes de Tlemcen, Fontemoing, Paris, 1905, p. 223-224.

(45) – عن شخصية سيدي أبي مدين: حياته ووفاته انظر: يحي بن خلدون، *بغية المراد*، ج1، ص 125-126، ابن مريم، *البستان*، ص 108-114، عبد الحميد حاجيات، *كتاب الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان* (تحقيق) ش.و.ن.ت. الجزائر، 1982، ص 23 هامش 1.

Ch. Brosselard, Les Inscriptions..., R.AF., 1859, p. 1-17.

G. Marçais, Les villes d'art célèbres, Tlemcen, Librairie Renouard, H. Laurens, p. 66-67.

(46) – G. Marçais, Tlemcen, p. 70.

(47) – G. et W. Marçais, Les Monuments..., p. 27-28.

(48) – G. Marçais, Manuel, T. 2, p. 491.

(49) – عنه انظر الهامش 45.

(50) – Ch. Brosselard, Les Inscriptions, pp. 401-410. ابن مرزوق، مصدر سابق، ص 406.

(51) – G. Marçais, Les Monuments..., p. 274.

(52) – حسن الوزان، *وصف افريقيا*، جزآن، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص 24.

(53) – G. Marçais, L'Architecture..., p. 290.

(**) – وعن النظام المتبع في المدرسة والزاوية، ينظر الونشريسي، *المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى افريقية والأندلس والمغرب*، ج1، 7، 9، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981، مج 7، ص 262-267.

(54) – رشيد بوروبية، *الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية*، ترجمة ابراهيم شبوح، الشركة الوطنية للنشر

والتوزيع، الجزائر 1979، ص 83.

(55) – Ch. Brosselard, Les Inscriptions..., R.AF, no 18, p. 108-109.

(56) – عبد الرحمن بن خلدون، *العبر*، مج 7، ص 558.

(57) – حسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 24.

(58) – مولاي بالحميسي، *الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني*، ص 156-162.

(59) – J.J.L. Bargés, Tlemcen, p.310.

(60) – J.J.L. Bargés, Tlemcen, p.310.

(61) – يشير إلى ذلك بارجيس، Ibid, p. 312.

(62) – G. Marçais, Manuel.., t. 1, p. 516; G. et W. Marçais, Les Monuments... p. 274.

(63) – G. et W. Marçais, Les Monuments..., p. 274.

(64) – في «اليمن» أغفل النقاش حرف الألف، وفي كلمة «البقاء» أغفلت الهمزة وكتب الألف مقصورا.

(65) – انظر ذلك في: R. Bourouiba, L'Art religieux en Algérie, Alger, SNED, 1973, p. 190.

(66) – ليس لدينا أي معلومات تفيد بإلحاق ضريح بالمدرسة، وليس ذلك من خصائص عمارة المدارس المغربية.

(67)– الونشريسي، *المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوي افريقية والأندلس والمغرب*، ج1، 7، 9، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1981، مج 7، ص 341.

(68) – عبد العزيز الدولاتلي، نفس المرجع، ص 197-198، د. عبد العزيز سالم، *مدارس فاس: مساجد ومعاهد*، سلسلة كتاب الشعب، رقم 78، ج2، القاهرة 1960، ص 205.

(69) – رغم التشابه الكبير في تخطيط هذه المدارس فإن مدرسة سيدي أبي مدين أكثر اكتمالا وتنظيما، انظر: G. Marçais, L'Architecture, P. fig. 117-118.

(70) – L. Golvin, "Madrasa et Architecture Domestique", Colloque sur l'habitat traditionnel dans les pays musulmans autour de la Méditerranée, Aix-en-Provence 6-8 juin 1984, V1: L'histoire et le milieu V2: Etudes urbaines, pp. 375-383, Pub. de l'Institut Français d'Archéologie oriental, 1190, p. 448.

(71) – M. Terrasse, L'Architecture hispano-maghrébine et la naissance d'un nouvel art marocain à l'age des Mérinides, Thèse de Doctorat d'Etat, Université de la Sorbonne, Paris, 1990, p. 320-322.

(72) – G. Marçais, L'Art musulman, Quadrige/Presse universitaire de France, 1981, p. 128. Même auteur, Manuel d'art, t. 2, p. 522 وانظر أيضا د. حسن الباشا، *مدخل إلى الآثار الإسلامية*، ص 163.

(73) – عن رباطي سوسة والمنستير، انظر: A. Lezine, Le Ribat de Sousse suivi de notessur le ribat de monastir, Imp. La rapide, Tunis, 1956, pl. I-III.

(74) – ألبكرى (أبو عبيد الله ت.487هـ / 1095م)، *كتاب المغرب في ذكر افريقية والمغرب*، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشره البارون دوسلان، Librairie A. Maisonneuve, Paris 1965، ص 35-36.

(75) – T. Burckhardt, L'Art de l'Islam, Language et signification, Sindbad, Paris, 1985, p. 192.

(76) – د. أحمد فكري، *مساجد القاهرة ومدارسها: المدخل*، ص 299، هامش 1.

(77) – نفسه، ص 300، هامش 1، وانظر عن ذلك في العمائر القديمة والمسيحية ما يلي: P. Aupert, "Remarques sur le dessin d'architecture et le tracé d'implantation dans la Grèce d'époque impériale", in le dessin d'architecture dans les sociétés antiques, Actes des colloques internationales de Strasbourg, 26-28 Janvier 1984, p. 266. انظر أيضا حول نفس الموضوع في الكنائس المسيحية، Bruno Dufay, "Du monument tel qu'il est au monument idéal, le rôle des irregularités plans dans la recherche de la

geométrie du basilique Paléochretiennes" in Actes de colloques des intern. de Strasbourg, p. 318.

(78) – أثرت حروب الإسترداد المسيحية على سكان المناطق الشمالية والوسطى، فأخذوا ينزحون عنها في اتجاه الجنوب كلما سقطت مدينة، فازدادت الكثافة السكانية في مملكة بني نصر اضطرت معها مجموعات سكانية كثيرة على الهجرة في أوقات متتالية إلى عدوة المغرب، في فاس ومراكش وتلمسان وغيرها من مدن المغرب ونواحيه، وامتهنت ما كانت تمتهنه من قبل من فلاحة وزرع وصناعة وفن وما إلى ذلك، فأثرت بذلك في الحياة الفنية والمعمارية، والاقتصادية للمناطق التي استقروا فيها بحكم تفوقهم فيها على المغاربة، انظر في ذلك عبد الرحمن بن خلدون، *العبر*، مج 6، ص 683-684، عبد العزيز الدولاتلي، مرجع سابق.

(79) – G. Marçais, L'Architecture, p. 289, M. Terrasse, op. cit., p. 144-145.

(80) – انظر في ذلك G. Marçais, L'Architecture, Fig. 174-183 د. أحمد فكري، *المدخل*، ص 300.

(81) – حسن سليمان، *سيكولوجية الخطوط*، دار الكتاب العربية للطباعة والنشر، القاهرة، دت. ص 10، 39، شكل 10 ـ 3 9.

(82) – H.E. Huntley, The divine proportion, New York, 1972, p. 153.

(83) – د. حاسم الدباغ، *أوليات في العمارة*، الجزائر، 1995، ص 75.

(84) – Ahmed Khaneboubi, Les premiers sultans mérinides, L'Harmattan, Paris, 1987, pp. 192-193.

شكل رقم 1: العباد مخطط المجمع المعماري الأثري (ع/الوكالة الوطنية للآثار – تلمسان).

شكل رقم 2: تلمسان / تخطيط مدرسة سيدي أبي مدين (العباد) (ع. الباحث).

شكل رقم 3: العباد. عقد مدخل المدرسة.

شكل رقم 4: اللوحة التي تكتنف مدخل مدرسة العباد.

شكل رقم 5: مدرسة العباد. العقود المشرفة على الصحن.

شكل رقم 6: – مخططات بعض المدارس المرينية في المغرب.

– مدينة فاس: مدرسة الصفارين – مدرسة فاس: مدرسة الصهريج – مدينة فاس: المدرسة المصباحية. – رباط سوسة ومصبلاه. مصدر تخطيط المدارس المغربية.

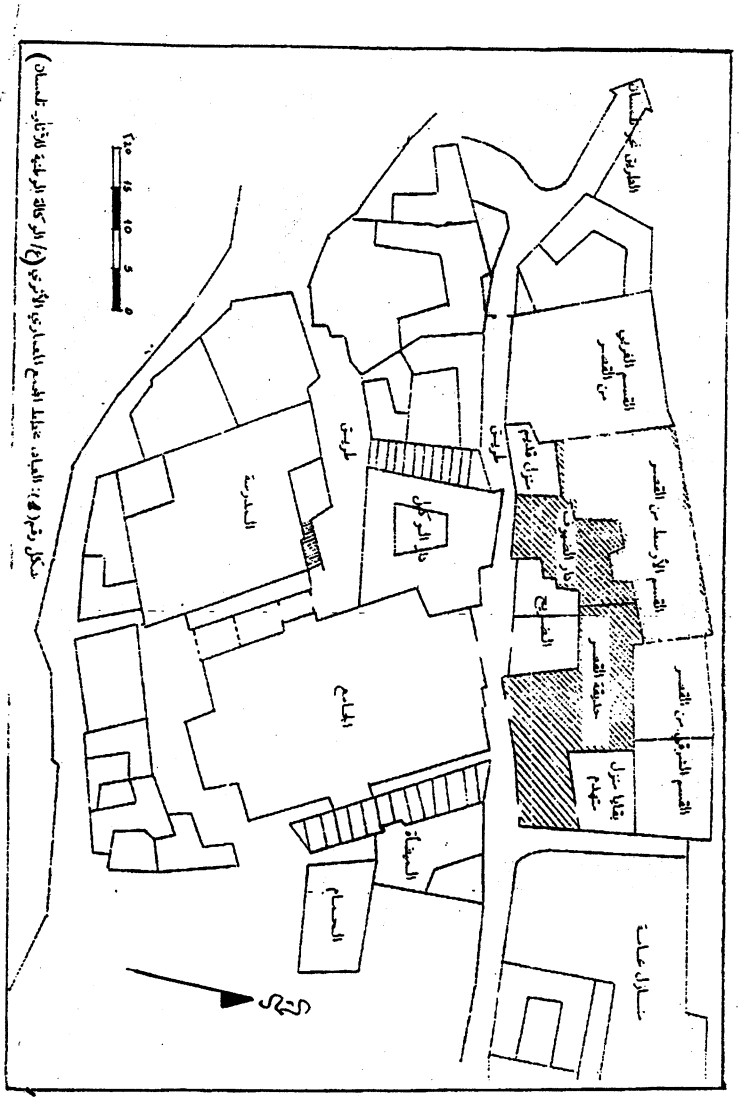

شكل رقم (4): العباد، مخطط المسجع المعماري الأثري (ع) الوكالة الوطنية للآثار، تلمسان)

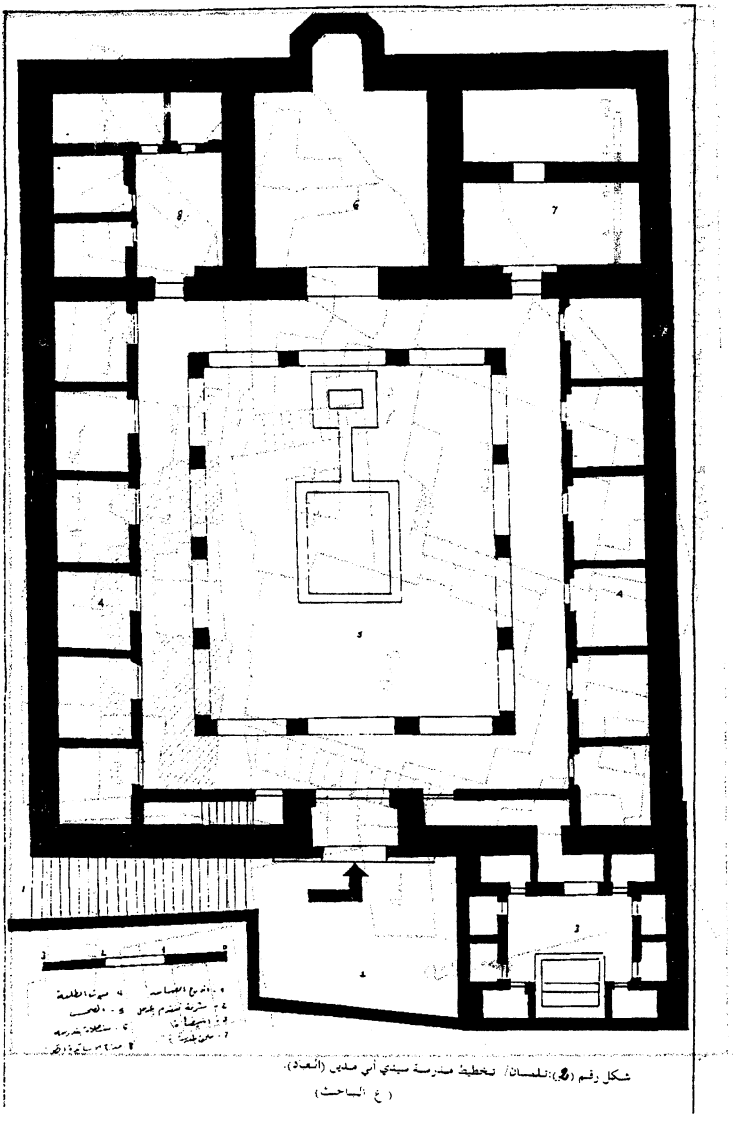

شكل رقم (6): تلمسان: تخطيط مدرسة سيدي أبي مدين (العباد).
(ع الباحث)

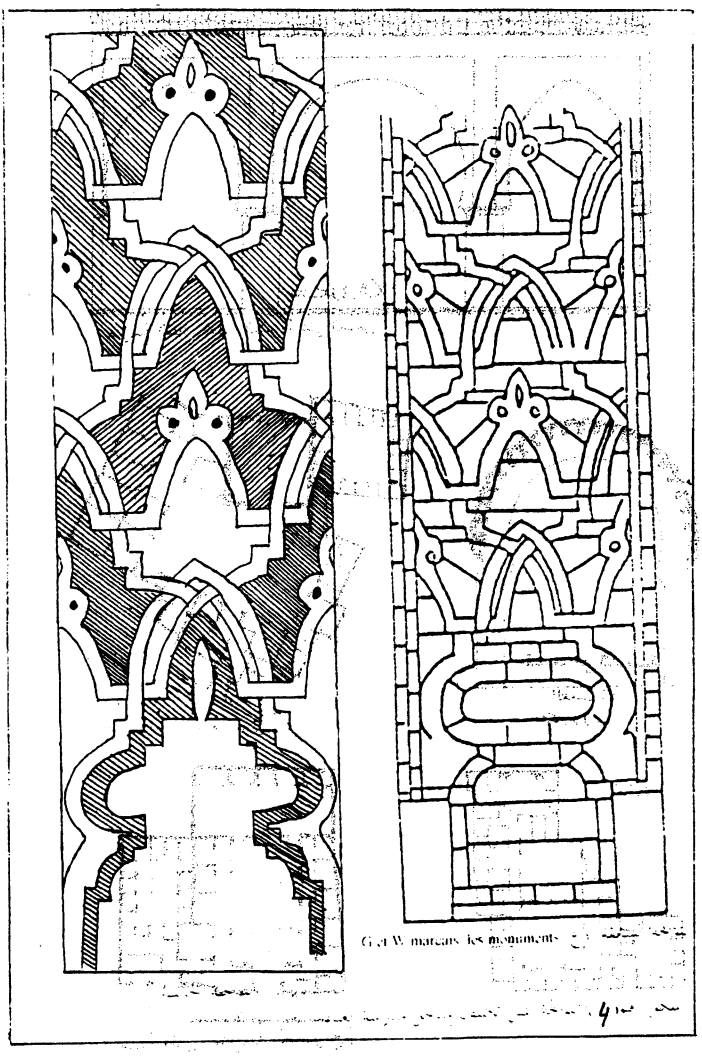

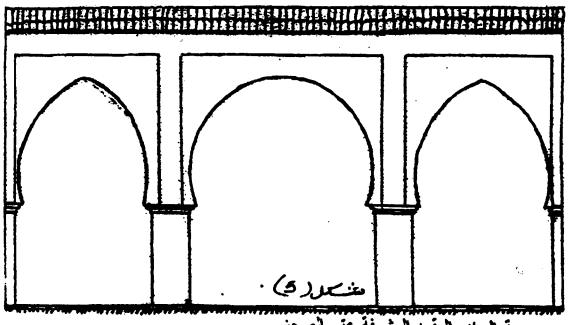

مدرسة العباد. العقود المشرفة على الصحن

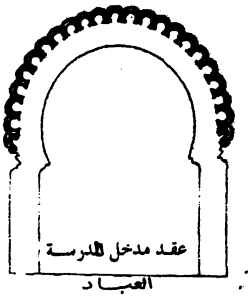

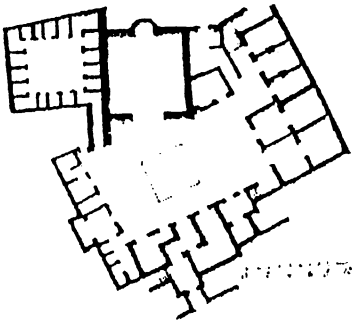

مدينة فاس مدرسة الصفارين

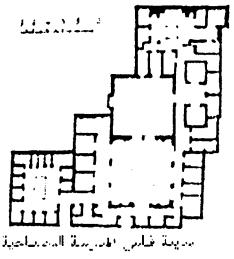

مدينة فاس المدرسة البوعنانية

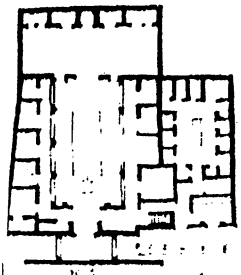

مدينة فاس مدرسة الصهريج

شكل رقم(6)مخططات بعض المدارس المرينية في المغرب

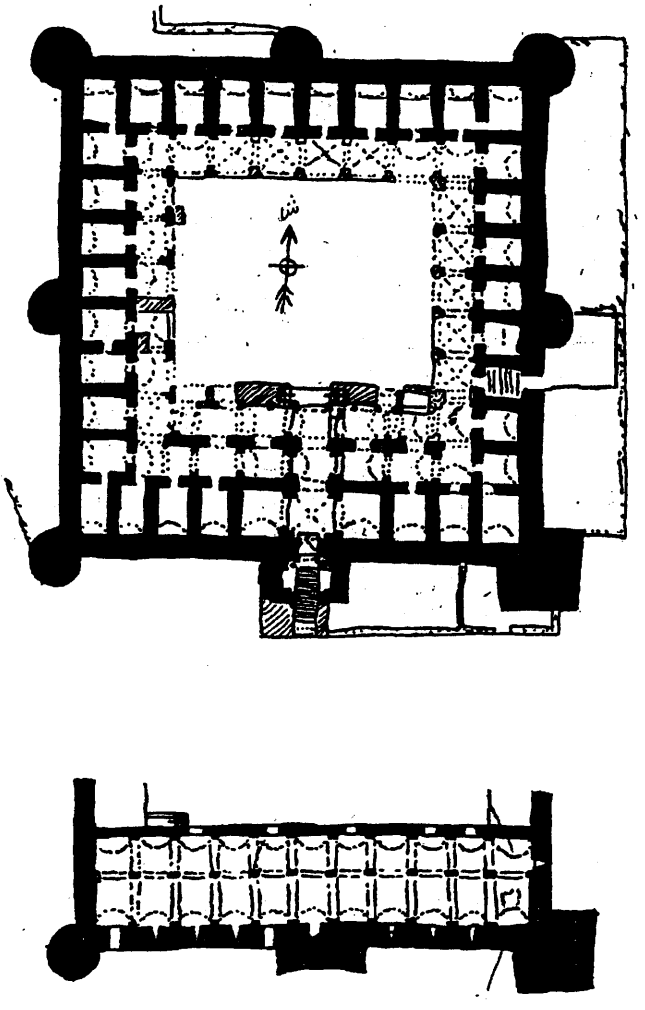

فشكل (٦) رباط سوسة ومصلاه.
مصدر تخطيط المدارس المغربية.